المسئولية الأخلاقية فى فلسفة بروس والر

أ.د/ جمال رجب سيدبي[١] أ.د/ سامية عبد الرحمن محمد[٢]

ياسمين سعيد أحمد[٣]

[١] أستاذ أستاذ الفلسفة الحديثة والمعاصرة كلية البنات للأداب والعلوم والتربية.

[٢] باحثة دراسات عليا – كلية الآداب جامعة السويس.

[٣] أستاذ الفلسفة الإسلامية كلية الآداب جامعة السويس.

المقدمة:

يمكن أن نرى بوضوح أن الناس عند "والر" تتعلق على نحوٍ راسخ بفكرة المسئولية الأخلاقية التى تقوم على حرية الإرادة. وتفترض حرية الإرادة أن البشر عاملون سببيون نشطاء يستطيعون الاختيار فى فعل أحد البديلين المختلفين، وهم لذلك يستحقون من الناحية الأخلاقية المدح أو الذم، أو المكافأة أو العقاب على اختياراتهم. وهو يرى أن المدح أو الذم والأفكار الأخرى ذات الارتباط، غير منطقية بالمعنى العلمى وأنه من المستحيل تبريرها. فعلى سبيل المثال فإنه يجادل بأنه ليس هناك أى معنى فى أن نلوم شخصا عما فعله، إذا لم يمكنه منع نفسه عنه ويفسر "بروس" بأن رسوخ الاعتقاد فى المسئولية الأخلاقية فى الوعى أو الشعور الشعبى، يعود ، جزئيا إلى وجود أنظمة تُشابِك المعتقدات التى تربط حرية الإرادة والمدح والذم والاعتقاد فى عالَمٍ عادل، وأن هذه المعتقدات، عند أخذها معا، تقوِّى وتدعم صحة العقاب وتخدم كأسسٍ ودعامات لنظام العدالة الجنائية

وقد قسمت هذا البحث إلى ثلاث مباحث وخاتمه عربى وأجنبى كما يلى:

المبحث الأول: حياة بروس والر

المبحث الثانى: المسئولية الأخلاقية فلسفة والر

المبحث الثالث: الإرادة الحرة وعلاقتها بالمسئولية الأخلاقية

المبحث الأول: حياة بروس والر

بروس والر Bruce Waller :هو فيلسوف أمريكي معاصر ، ولد في 20 أغسطس.1946 ، حاصل على – دكتوراة ١٩٧٩ من جامعة شمال كارولينا فى تشابيل هيل بالولايات المتحده الأمريكية، ، وفى عام ٢٠١٦، كان يعمل كأستاذ للفلسفة بجامعة يانجستون الحكومية(١).

درس "والر "waller لمدة ٢٩ عامًا. تأثر "والر" بموضوعات معينة فى الفلسفة وهي (الإرادة الحرة – المسؤولية الأخلاقية – والأخلاق والتفكير النقدي – وأخلاقيات العدالة الجنائية)، كما أن له إهتمامات خاصة فى أبحاث(علم النفس – وعلم الأحياء – وعلم الاجتماع ، وعلم الإجرام والقانون – والسياسة) والتى لها صلة بالقضايا الفلسفية.

خلال العقدين الماضيين ، رفض نظام المسؤولية الأخلاقية ، حيث يرى – أن نظام المسؤولية الأخلاقية عفا عليه الزمن ومدمّر للغاية: إنه يعيق الفهم العميق ويعيق تطوير أفضل الأنظمة ليخرج الأبحاث النفسية المستنيره ، ويعيق تطوير سياسات الموظفين للافضل ، كما إنه يستخدم الطرق الحديثة ليبرر بها الإجرام . ومع ذلك ، فإن زوال نظام المسؤولية الأخلاقية لا يعني فقدان الإرادة الحرة ؛ على العكس من ذلك ، توضح الأبحاث المعاصرة في علم النفس والبيولوجيا إرادة طبيعية حرة تتضاءل كلما تلاشت المسؤولية الأخلاقية(٢).

---

(1) Stephen Cave (June 2016). "There's No Such Thing as Free Will: But we're better off believing in it anyway" (https://www.theatlantic.com/magazine/archive/2016/06/theres-no-such-thing-as-free-will/480750/).

(2) http://www.ysu.edu/philrel/?p=161, Bruce N waller.com

إن "والر" يزعم بأن الاعتقاد فى حرية الإرادة والمسئولية الأخلاقية يجلب عددا من المشكلات، وعلى الأخص عالَما بائسا بالنسبة لمن هم أقل حظا، فهو، بالذات، يؤدى إلى "جرعات" متعددة من عدم الإنصاف:

١- الحظ التنموى الأولى السئ لمَن هم أقل حظاً

٢- الاعتقاد بأنهم على نحو ما كانوا مسئولين عن حظوظهم السيئة

٣- توسيع عدم المساواة الاجتماعية[١]

إن "والر" يعتقد بأنه لا أحد يستحق المعاملة الضارة، بما فيهم المجرمون المُدَانون، على الرغم من إدراكه أن بعض الناس يجب حبسهم خلف القضبان لأسباب براجماتية عملية تتعلق بالسلامة العامة، وهو يعتقد أنه ينبغى تقليل العقوبة إلى حدها الأدنى حيث أنها غالبا ما تعطى نتائج عكس المرْجُو منها، وأحيانا تشجع على السلوك الضار اللاحق، وهو يعتقد أن قبول الجبرية سيؤدى إلى نتيجة إيجابية من حيث جَعْل الناس أقل توجها للعقاب وأقل جزائيا أو انتقاميا، وأن الاستجابات الإنسانية لمشكلة الجريمة ستصبح بوجهٍ عام أكثر عملية وفائدة[١].

ومازال وصف "والر" لحرية الإرادة يقود إلى رأى مختلف تماما عن العدالة والمسئولية عما يراه معظم الناس اليوم. فلا أحد قد سبَّب نفسه: أى لا أحد اختار جِيناته أو البيئة التى وُلِد فيها. ولهذا، فلا أحد يتحمل مسئولية مطلقة عما من يكون هو وما الذى يفعله. وعندما يكون التهديد بالعقاب ضروريا كرادع، فسوف يتوازن فى أحوال كثيرة مع جهود تقوية القدرات من أجل الاستقلالية، أكثر من إضعافها.

---

(1) James B. Miles (March 28, 2015).Review "The Free Will Delusion: How We Settled for the Illusion of Morality"

(1) James B. Miles (March 28, 2015).Review "The Free Will Delusion: How We Settled for the Illusion of Morality"

يمكن تصنيف اسهامات والر فى الفلسفة السياسية والاخلاقية فى ضوء الأتى:

١ – رفض المسئولية الأخلاقية *Against Moral Responsibility*

يرى والر أن نظام المسئولية الأخلاقية: نظامٌ مترسخ بعمق فى مجتمعنا ومؤسساته، ومتجذّر بعمق فى مشاعرنا، ويدافع عنه الفلاسفة بهمةٍ منذ أرسطو Aristotle وحتى اليوم الراهن. وقد يبدو مثل هذا الهجوم متهورا، أو على الأفضل دونكيخوتيا (وهميا) *quixotic* [*]. ولكن فى الواقع، فإن نتائج الدراسات المكثفة النفسية والاجتماعية والبيولوجية، قد سبّبت مشاكل كبرى للمدافعين عن المسئولية الأخلاقية، وهناك عيوبٌ خطيرة فى نظام المسئولية الأخلاقية. وأكثر من هذا، فإن المدافعين الفلسفيين عن المسئولية الأخلاقية – على الرغم من أنهم عديدون و واسعو الخيال ومُتبصِّرون وملتزمون – ليسوا فى موضع تقديم دفاع موحد عن قلعة المسئولية الأخلاقية. وبدلا من ذلك، ففى ردود أفعالهم على التقدم العلمى الذى يتحدى نظام المسئولية الأخلاقية، اقترح الفلاسفة تشكيلة متنوعة كبيرة من الدفاعات المختلفة والمتضاربة عن المسئولية الأخلاقية. وهناك مِثل هذا الجدل بين المدافعين عن المسئولية الأخلاقية بأن الإلغائيين للمسئولية الأخلاقية قد ينتصرون وهم جالسون فى الخلف فى أمان، بينما يقوم المدافعون بهدم حُجج بعضهم البعض[١].

٢– التفكير الناقد للحكم:

يرى والر إن التفكير الناقد هو مهارة قيمة؛ سواء أكان الذي تقرره هو ما نوع معجون الأسنان الذي يجب أن تستخدمه أو ما هي الأسهم التي يجب أن

(1) Bruce waller: Against Moral Responsibility , The MIT Press. Cambridge, Massachusetts, London, England p Ix.

تشتريها؛ أي عمل يجب أن تسعى من أجله أو أي دورات يجب أن تحضرها؛ أي مرشح تصوت له أو أية قضية تدعم؛ أو أي تقارير تصدقها وأي ادعاءات ترفضها. ولكن أحد أهم الأماكن للتفكير الناقد هو غرفة المحلفين. إن العمل في هيئة محلفين هو أحد أهم السبل وأكثرها جوهرية التي يشارك فيها المواطنون بفاعلية في حكومتهم، ويتطلب نظام عمل هيئة المحلفين الفاعل عدداً كبيراً من المواطنين. ويجب على المحلفين أن يضعوا جانباً أية تحيزات وأن يحكموا في القضايا بعدالة؛ ويجب عليهم التدبّر بدقة وعناية في القوانين المؤثرة وكيف يتم تطبيق هذه القوانين على بيانات القضية المطروحة؛ ويجب عليهم أن يقيموا الشهادة وأن يزنوا صحتها وعلاقتها بالموضوع؛ ويجب عليهم أن يمنحوا استماعاً منصفاً لكلا الطرفين، ويميزوا الحجج الصائبة من الحجج غير الصحيحة، وفي نهاية المطاف يصلوا إلى نتيجة عادلة وحكيمة[١].

٣ – الإراده الحره المجدده : Restorative Free Will

يحاول والر أن يعرف الإرادة الحرة على إنها القدرة على الاستكشاف الفعّال للسُبُل أو الطرق البديلة، استجابة لمجموعة مؤتلفة من الاحتمالات أو الأحداث الطارئة البيئية والدوافع أو البواعث الداخلية. وتشمل العناصر الأساسية لتلك المقدرة، القدرة على التمييز فيما بين البدائل وتقييمها والقدرة على ضبط مستوى التقلب أو التغير السلوكى للظروف البيئية. إن ذلك وصف عادى صارم للإرادة الحرة التى توجد بين الحيوانات التى تبحث عن طعامها والتى تطوّرت فى عالم متغير. والإرادة الحرة المتطورة الطبيعية لن تلهم لا الشعر ولا الإخلاص الدينى، وهى ليست الصفة التى تجعلنا شبه آلهة، ولا هى الهبة

(1) *Critical Thinking: Consider The Verdict*, 6^{6h} Ed. (Upper Saddle River, N.J.: Prentice-Hall 2012. P3

الخاصة من الله لخلقه المفضل والأخير. والإرادة الحرة ليست فريدة للبشر، وهى لا تتطلب مستوى عاليا من العقلانية التأملية، وهى لا تساند المسئولية الأخلاقية، ولا تتضمن أى قوى خاصة[١]

٤ – محو العقاب الظالم (العيش فى عالم عادل):

The Injustice of Punishment

يجادل والر أن كل العقاب ظالم، وليس الادعاء بأننا نستطيع أو حتى ينبغى أن نتخلص من كل العقاب. ويؤكد "دينيت" (٢٠٠٨، ٢٥٨)[*] أن "عالَما بدون عقاب ليس عالما يود أىٌ منا العيش فيه". وأنا أختلف معه: إننى أحب العيش فى عالم بدون عقاب. ومع ذلك، فمن غير المحتمل أن يوجد مثل هذا العالم فى المستقبل المنظور، وربما لن يوجد أبدا. ولذلك فإن الحجة فى كتاب (ظلم العقاب) ليست حجة على التخلص من كل العقاب، ولكن على أن كل العقاب غير عادل، ونحن نكون أفضل حالا فى التعرف على ذلك الظلم وليس بالاحتفاء بالعقاب كشكلٍ من أشكال "الاستحقاقات العادلة" أو "القصاص العادل" . قد يكون العقاب ضرورة حقا فى العالم الذى نعيش فيه، لكنه خطأ لازم وعنصر للظلم لا يمكن تجنبه فى عالمٍ ليس عادلا[١].

٥ – الدين والأخلاق Ethics and Rigion

الدين والأخلاق: الدين والأخلاق إذا كانت الأخلاق لا تستند إلى إرادة الله أو عقوبات الله ، فما هو أساس الأخلاق؟قدم والر نقدًا للنظرية التطوعية اللاهوتية يجادل بأن التطوعية اللاهوتية لا يمكن أن تكون نظرية أخلاقية ، لأنها

---

(1) *Restorative Free Will: Back to the Biological Base, 2015, Lexington Books* p1.

(1) *Restorative Free Will: Back to the Biological Base, 2015, Lexington Books* p1.

تتطلب أن نتخلى عن جميع المداولات الأخلاقية الحرجة وأن نتبع الأوامر لذلك ، لم يعد من يتبع اتباع التطوع اللاهوتي فاعلًا أخلاقيًا ، لأنهم يتصرفون دون استقلالية الله والمواقف الإنسانية[١].

٦- العدالة الجنائية والحرية الفردية:

إن العدالة الجنائية طبقا لـ "والر" تتعامل مع مؤسساتٍ وهيئات تضبط الجريمة بالمجتمع: فرض أو إنفاذ الشرطة للقوانين، والقبض على المخالفين المشتبه فيهم، والتحقيق فى الأفعال الجنائية ومحاكمات المتهمين، ومعاقبة و/أو إعادة تأهيل المخالفين أو المجرمين الجنائيين. وكل من تلك المجالات تُولِّد خلافات معروفة: كيف ينبغى أن يكون فرض القانون من ناحية الشرطة حازما وقاطعا؟ وهل ينبغى للشرطة عمل أحكام اجتهادية بخصوص فرض القانون؟ وهل ينبغى للشرطة استخدام الخداع فى تحرِّى الجرائم؟ وهل ينبغى مقاضاة الأحداث كبالغين أو راشدين؟ وتحت أية شروط أو ظروف ينبغى حبس المخالفين أو المجرمين؟ وهل عقوبة الإعدام عقابٌ مناسب؟ إن كثيرا من تلك القضايا حديثٌ نسبيا فى تاريخ العدالة الجنائية: فنظام العدالة بالنسبة للأحداث قد تطوَّر فى القرن التاسع عشر، ومن قبله كان يتم حبسُ الأطفال وإعدامهم دون اعتبارٍ كبير لسنهم. وقد استُخدِمت عقوبة الإعدام استخداما واسعا، ولقرونٍ طويلة كان من النادر مناقشتها. والمسائل التى كانت تخص السلوك الاحترافى السليم لضباط الشرطة لم تكد تظهر قبل تطور قوة شرطية احترافية، وهى عمليةٌ أخرى تمت بالقرن التاسع عشر[١].

---

(1) *Restorative Free Will: Back to the Biological Base, 2015, Lexington Books* p1.

(1) *Restorative Free Will: Back to the Biological Base, 2015, Lexington Books* p1.

٧- الجانب السياسى من فلسفى والر:

The political side of philosophy

يعالج والر فى كتابه أن فكرة المعسكرات وتأثيرها على سلوك المجرمين الشباب ، كما يدافع حقوق الضحايا فى الدستور الأمريكى.

كما يجادل والر أن الأرهاب قد يكون مبررا فى بعض الأحيان من قبل البعض لذلك طالب بوضع قوانين ضرورية للحماية من الأرهاب كما طالب مشرع القانون بوضع قانون للحرب على المخدرات.

يرى والر تقويم سلوك المجرمين يمكن أن يكون عن طريق عمل معسكرات لهم ويتم من خلالها توعيتهم بضرورة الاقلاع عن الجريمة إي ما كان نوعها، كما يطالب والر بوجود قوانين تحمى من الأرهاب ومن الذين يحاولون تدمير البلاد، لذلك يرى أن الأرهاب على الأرهاب قد يكون مبرر للحماية منهم

يستنتج من ذلك ، هو أن الاجتهاد الشرطى يحتاج لأن يكون محددا ومقيدا بعناية بشكلٍ أكثر من الاجتهاد القضائى. ولأن الاجتهاد الشرطى خاص أو شخصى بمعنى أن كثيرا مما تفعله الشرطة لا يتم الإشراف عليه، وستظل هذه الحالة سواء كان لديها أو لم يكن السلطة الرسمية للتصرف بطريقة اجتهادية.

المبحث الثانى: المسئولية الأخلاقية فى فلسفة والر

ستناقش الباحثة فى هذا المبحث تعريف والر للمسئولية الأخلاقية وكذلك تعريف بعض الفلاسفة لها ، وما هو مدى الأتفاق والأختلاف لهذه التعريفات بالنسبة لـ والر كذلك ما دور المسئولية الأخلاقية

تعريف المسئولية الأخلاقية:

يقول "والر" إن النزاع حول المسئولية الأخلاقية نزاع قديم له كثير من الانعطافات والانحناءات. وبعض هذه الانعطافات قد تضمنت بالضبط ما هو متضمن فى القول بأن أحدا من الناس "مسئول أخلاقيا" إن المسئولية الأخلاقية هى التى تبرر مكافأة أو عقابا خاصا، فالمسئولية الأخلاقية توفر التبريرات الأخلاقية التى تخص شخصا ما بالإدانة أو الثناء، بالمديح أو اللوم، بالمكافأة أو العقاب(١).

كما أن البعض يرى أن المسئولية الأخلاقية هى محاولة تطبيق العقاب والثواب، حيث يُحدثان المنفعة الاجتماعية الأكبر. بينما يدّعى آخرون أن المسئولية الأخلاقية تتضمن فقط صنع الأحكام الأخلاقية: فعندما نقول إن "شخص ما " ارتكبت شيئا خطأ من الناحية الأخلاقية، فإن هذا يتضمن بالضرورة الحُكم بأنها مسئولةٌ أخلاقيا عن سلوكها الخاطئ، وذلك لأن المسئولية الأخلاقية هى عن المساءلة أو المحاسبة. فلو أنك مسئول أخلاقيا عن فعلٍ ما، فإذن (بنموذج المحاسبة) من المشروع أن نطلب منك إعطاء سببٍ أو تبرير لفعلك. فعندما نقول إن "كاسندرا" مسئولة أخلاقيا عن فعل معين، فإننا نعنى أنها مُحاسَبة عن ذلك الفعل: يجب أن تكون قادرة على إعطاء سبب لما فعلته(٢).

---

(1) Bruce waller: Against Moral Responsibility, The MIT Press. Cambridge, Massachusetts, London, England p2

(2) Ibid, p6.

يمكن القول أن مسئولية الفرد الأخلاقية تحتم عليه إعطاء تفسير أو تبرير للأفعال سواء الجيدة أو السيئة ، وفى حالة الاختيار يكون مسئولاً عن هذه الأفعال ومن ثم محاسبته من منطلق أن اختياره نتيجة لتفكير عقلانى.

من ناحية أخرى فإننا نجد كانط Kant قد أوجد تعريفاً للمسئولية الاخلاقية بأن الإرادة نوع من العلية تتصف به الكائنات الحية ، من حيث هي كائنات عاقلة ، و الحرية ستكون هي الخاصية التي تتميز بها هذه العلية فتجعلها قادرة على الفعل وهي مستقلة عن العلل الأجنبية التي تحددها مثلما أن الضرورة الطبيعية هي الخاصية التي تتميز بها العلية لدى جميع الكائنات غير العاقلة، وهذا معناه أن تكون حرا معناه ان تكون شخصا ذا مسؤولية أخلاقية ، فالإرادة الحرة و الإرادة الخاضعة للقوانين الأخلاقية تعبران عن شيء واحد .من جهة أخرى يعرف كانط المبدأ الأخلاقي بأنه مبدأ الحرية وهو قدرة الشخص على التصرف وفقا لقوانين موضوعية يتبناها بنفسه، فما عسى أن تكون حرية الإرادة إن لم تكن الاستقلال الذاتي، أي الخاصية التي تتميز بها الإرادة فتجعل منها قانونا لنفسها[١].

وفى ضوء ذلك فالمسئولية الأخلاقية عند كانط تعتمد على الحرية و لابد ان تظهر بطريقة تلقائية، و نقصد بهذا إن كلا من السعادة و الفضيلة لا يمكن أن يكون الواحد منهما محمولا للآخر و إن حاولنا أن نجعل احدهما كمحمول للآخر سوف يتضمن خرقا متعمدا للحرية.

وعلى ذلك يرى "والر" أنه من كل القوى التى تُؤكد المسئولية الأخلاقية بقوه، ربما كانت القوة الأقوى هى القوة الثقافية. وبالطبع فإن الثقافة التى تزدهر فيها المسئولية الأخلاقية ليست ثقافةً محددة على سبيل الحصر بالمسئولية

[١] ايمانويل كانط، تأسيس ميتافيزيقا الاخلاق، ترجمة د. عبد الغفار مكاوى، ١٩٦٥ص ١٠٣.

الأخلاقية: إنها تضم مجموعة متنوعة ثرية من العناصر، تكون المسئولية الأخلاقية – على الرغم من أهميتها ومركزيتها – مجرد جزءٍ واحد. وهناك بالفعل مجموعةٌ متنوعة من الثقافات تتواجد فيها ممارسات كالمسئولية الأخلاقية(١).

غير أن سى. إيه. كامبيل C. A. Campbell ،يعارض "والر" إذ أنه يوفِّق بين الاعتقاد فى المسئولية الأخلاقية وبين معرفتنا العلمية، لكنه يصر على أنه إذا ما فشل هذا المشروع، فإنه سيتخلى عن اعتقاده فى مصداقية البحث العلمى كى يحافظ على اعتقاده فى المسئولية الأخلاقية، لأن الأخيرة أساسية لحياتنا ككائنات أخلاقية عملية. كما أننا لسنا فى حاجة إلى حجة للدفاع عن المسئولية الأخلاقية، لأنها مركزية ورئيسية جدا لاعتقادنا ونظام قِيَمِنا، لدرجة أنه لا يمكن إنكارها بدون هدم الأساس لحياتنا الأخلاقية والعاطفية، وأنه مهما كان إدعاء بعض الفلاسفة بإنكارهم للمسئولية الأخلاقية، فمن غير المحتمل للغاية أن يرفض أى شخص على نحوٍ صادق ذلك الاعتقاد العميق(٢).

ويعرف دكتور جميل صليبا المسئولية الأخلاقية Moral Responsabitity بأنها المسئولية الناشئة عن الزامية القانون الأخلاقى، وعن كون الفاعل ذا إرادة حرة، ومعنى ذلك أن الفاعل الذى تكون أفعاله ضرورية، أى ناشئة عن أسباب طبيعية، أو مسيرة بإرادة غيره، لا يعد مسؤولا من الناحية الإخلاقية، ولهذه المسؤولية درجات متفاوتة، أعلاها مسؤولية الفاعل الواعى الذى تصدر الأفعال عن ارادته بحرية تامة(٣).

---

(1) Bruce waller: Restorative Free Will, Lexington Books, An imprint of The Rowman & Littlefield Publishing Group, Inc, p207

(2) Campbell , C. A. 1957 . *On selfhood and godhood* . London : George Allen & Unwin, Ltd .

(3) Bruce waller: Against Moral Responsibility,p4.

ومن هنا يميز "والر" بين نوعين من النقاشات حول المسئولية الأخلاقية (داخلية وخارجية).

فالداخلية: كثيرا ما تلتقى الخطوط. فقد يجادل شخص مثلا بأن الكَفَرَة أو الفَجَرَة الذين عانوا من طفولة مسيئة أو متعسفة هم مسئولون أخلاقيا ومستحقون على نحو عادل للعقاب،لأن نظامنا للمسئولية الأخلاقية لا يقر بالطفولة القاسية كاستثناء مشروع من المسئولية الأخلاقية، وهذا جميل؛ فقد يجادل آخر بأنه مع السوابق داخل نظامنا، فإن التماسك أو التوافق يتطلب مد الظروف أو الشروط المبررة إلى مثل هؤلاء الأفراد سيئى الحظ. إن هذا جدل داخلى مثير للاهتمام وقد يتم متابعته بنشاط كبير وتبصر وذكاء. ولكن لو أخذ شخص ما هذا الجدل وحركه أو نقله إلى الخلاف الخارجى، فحينئذ يطرح الجدل السؤال بافتراض نفس نظام المسئولية الأخلاقية التى هى فى نزاع خارجى. أى أنه إذا جادل أحدهم بأن القتلة الذين يعانون من طفولة مسيئة لا يُعذَرون من المسئولية الأخلاقية والعقاب المبرر(فى نظامنا)، وأنه لهذا فإن بعض الناس على الأقل مسئولون أخلاقيا وأن المسئولية الأخلاقية نفسها مبررة[1].

نجد هنا أن والر قد أعطى استثناء للاعفاء من المسئولية الأخلاقية ، والتى تشترط البؤس فى الصغر ، لذلك فإنهم غير ملومين على أفعالهم السيئة ، التى هى نتاج الظروف التى عانوا منها وبذلك تكون المسئولية الأخلاقية نسبية تطبق على أشخاص ولا تطبق على آخرون، وترى الباحثة أن المسئولية تقع على عاتق هؤلاء لكن لا يتساوى من يتسرق من أجل لقمة العيش ومن يسرق من أجل جمع المال.

---

(1) Ibid,p4.

وأما الجدال الخارجى: فإن الجدال الخارجى عن المسئولية الأخلاقية ليس جدالا عما إذا كان أى شخص على الإطلاق يفعل شيئا خطأ أو حقا من الناحية الأخلاقية. فلو لم يفعل أى شخص على الإطلاق أى شئ صحيح أو خطأ أخلاقيا، فسوف تُختَصَر مسألة المسئولية الأخلاقية إلى تدريب فكرى مجرد. فالمسألة ليست ما إذا كان أى شخص يرتكب خطأ، ولكن ما إذا كان هؤلاء المخطئون يستحقون العقوبة عدلا[١].

وما إذا كان هؤلاء الذين يرتكبون الخطأ (وهؤلاء الذين يفعلون الصواب) مسئولين أخلاقيا عن سلوكهم الشرير أو الفاضل. (يَدَّعِى البعض أنه بدون المسئولية الأخلاقية يمكن ألا يكون هناك أى أحكام عن الصواب والخطأ، الفضيلة أو الشر؛ وسوف نناقش هذا الإدِّعاء فى حينه، لكنى أثق فى أنه لا يكشف عن كثير من الحبكة بحيث يمكننى القول بأنى أعتقد بكذب هذا الإدعاء).

وعلاوة على ذلك – وسوف يثير هذا الجدل اعتراضات ساخنة، فإن النقاش الخارجى الأساسى عن المسئولية الأخلاقية ليس مسألة ما إذا كان الناس يمكن أن تكون لهم شخصيات شريرة أو خَيِّرَة. فالجدل هنا أنهم يستطيعون، ولكنهم لا يستحقون المديح أو اللوم عن شخصياتهم، أو عن السلوك الذى ينبع من سمات شخصياتهم، فلا أحد مسئول أخلاقيا عن كونه سيئا أو أنه يتصرف بصورة سيئة – لكن هذا لا يعنى أنه لا أحد يمتلك شخصية ذات عيوب أخلاقية عميقة[٢].

يمكن القول مما سبق أن نظام المسئولية الأخلاقية يعمل بصورة جيدة فى منع الجريمة وتحسين الشخصية، ولو أننا استطعنا الحفاظ على نظام رائع من

(1) Campbell , C. A. 1957 . *On selfhood and godhood* . London : George Allen & Unwin, Ltd .
(2) Ibid,p .

القانون والانضباط، عن طريق التضحية بأحد الأشخاص الذى يتم اختياره عشوائيا كل عام، فقد يكون هذا مُقايضة مغرية؛ بالفعل، فلو قدِّم الله لنا مثل هذا النظام، فقد نتعاقد على ذلك (ولاسيما عندما نضع فى الحسبان أننا لو لم نفعل ذلك فسوف يُقتَل عدد أكبر من الناس بالخطأ كل عام)، كما أن سمات الشخصية لا تتحدد من خلال الولاده كونها خيره أو شريره ولكن اسلوب الحياة التى يعيشها الافراد هى التى تحدد ذلك.

غير أن " سام هاريس" sam Haris(*) ،يدعم رأى والر فيرى أننا موجهون بعمق إلى تصور الناس كمؤلفين لأفعالهم ، لكى نبقيهم مسئولين عن الخطأ الذى ارتكبوه فى حقنا، ولكى نشعر أن هذه التجاوزات يجب أن تعُاقب عليها غالبا، العقاب الوحيد الذى يبدو مناسبا هو أن يعانى مرتكب الجريمة أو يخسر حياته ، تبقى رؤية نظام للعدالة مستنير علميا يمكن أن ينظم هذه الدوافع، ومن الواضح أنه ينبغى لتفسير كامل لأسباب السلوك البشرى أن يخفف من ردنا الطبيعى على الظلم، على الأقل إلى درجة ما[١].

إن رأى "هاريس هو تعبير عن ما يقصده والر ، فى إننا نرى أن الذنب الذى يرتكبة أى إنسان لابد أن يعاقب عليه وفق ما نقرره نحن، بغض النظر عن نوع الجريمة التى ارتكبها، والتى قد تكون لا تستحق العقوبة المشدده، وهذا الرأى يعبر عن ذاتية الفرد فى إتخاذ الاحكام.

ولهذا فإن الاعتقاد الرئيسى فى المسئولية الأخلاقية طبقا ل "والر" ليس نتاجا للعقل، ولكن للعاطفة العميقة، ومن الواضح أن الفلاسفة المعاصرين الذين يدافعون عن المسئولية الأخلاقية، لا يدافعون عن – وسوف يستهجنون – الهجمات على كباش فداء؛ بل على النقيض، فإن بؤرة جهودهم هى توضيح

[١] سام هاريس: الإرادة الحرة، ترجمة هيبة خطاب، ص ٧٢.

وتدقيق من يكون أو لا يكون بالضبط مسئولا أخلاقيا. لكن الاعتقاد العميق فى المسئولية الأخلاقية – بين الفلاسفة والعامة على السواء – أقوى بكثير وأعمق مما يمكن لحُجج المسئولية الأخلاقية أن تَشْرَع فى تبريره(١).

وعلى ضوء ذلك يرى "كاشيوبو" Cacioppo* وحتى فى الحالات التى يعطِى فيها الشخص تفسيرا صحيحا لفعله السئ (أو الجيد)، فهذا لا يثبت أنه مسئول أخلاقيا عن ذلك الفِعل. افترضوا أن "آن" اتخذت قرارا سيئا والتزمت بفعلٍ سئ أخلاقيا لأنها متسرعة فى قراراتها وتُخفق فى أن تضع فى اعتبارها عوامل أخلاقية مهمة كانت ستقودها إلى اختيار أفضل. فلو سألنا "آن" عن سبب فعلها السئ، فقد تقرر بدقة أنها قد اختارت اختيارا سيئا لأنها " بخيلة معرفيا"، فهى يمكن أن تتأنى، لكنها لم تُطَوِّر لديها أبدا القدرة على التأنى المُستدام؛ وبالفعل، فإنها قد تعتبر اندفاعها أو تهورها المعرفى عيبا أخلاقيا. ولكن هل "آن" مسئولة أخلاقيا عن النقص المعرفى لديها أو عن الاختيارات المعيبة التى تُسْتَمَد من تلك التقييدات؟ إن تلك أسئلة مازالت باقية بعد أن أعطت "آن" تفسيرا لسلوكها المَعيب(٢).

مما سبق يمكن القول إن القدرة على إعطاء تفسير لأفعال الشخص، ليست هى الشئ نفسه فى أن يكون الشخص مسئولا أخلاقيا عن تلك الأفعال.

وهذا الرأى طبقا ل والر – هو أن تكون مسئولا أخلاقيا هو أن تكون عُرْضة لمطالبتك بإعطاء تفسير – هو رأى جذاب لأنه يربط المسئولية الأخلاقية بالقوى الخاصة بالقدرة العقلانية على إعطاء التفسير: إنها قوى غالبا ما عوملت بأنها تفوق التواريخ التى شكّلتنا والقوى العقلانية المحدودة التى نتمتع بها فعليا.

(1) Bruce waller: Against Moral Responsibility, p 15

(2) Cacioppo , J. T. , and R. E. Petty . 1982 . The need for cognition. Journal of Personality and Social Psychology . p,42

وحيث أن هذا الأمر مُغــرٍ، وطالما أننا نكبح العقلانية داخل الحدود الطبيعانية، فإنه لا يمكنه تبرير المسئولية الأخلاقية وهكذا لو أصرَّ واحد على إعادة تعريف "المسئولية الأخلاقية" من ناحية "المساءلة أو المحاسبة"، فإن السؤال الأصلى عن المسئولية الأخلاقية سوف يظل هناك بعد حل السؤال المتعلق بالمحاســبة: "آن" مُحاسَبة على (ويمكن أن تعطى تفسيرا لــ) سلوكها[١].

وخلاصة الرأى فيما يرى "والر" أن الفلاسفة سوف يستمرون فى اقتراح حُججٍ جديدة مثيرة تأييدا للمسئولية الأخلاقية. ولكن هناك سؤالٌ مثير آخر: لماذا هذا الإصرار والمثابرة العنيدة على الاعتقاد فى المسئولية الأخلاقيــة – اعتقــاد مسيطر بين الفلاسفة؟ ربما لأنه أكثر تفهمًا بين الناس الذين يســتمر الكثيــرون منهم فى الاعتقاد فى الآلهة والمعجزات التى قَدَّمَت تقليديا أعظم التأييد للمسئولية الأخلاقية. لكن الفلاسفة الذين يتقيدون بنظرةٍ إلى العالم غير إعجازية وطبعانيــة على نحوٍ تام، يظلون ثابتين فى التزامهم بالمسئولية الأخلاقية، بينما هم واقفون وسط أنقاضِ محاولاتٍ فاشلة كثيرة لتبرير الاعتقاد فى المسئولية الأخلاقية[٢].

وعلى ضوء ذلك يفشل صنع الذات ،والقدره على الإختيــار كتبريــر للمسئولية الأخلاقية طبقا ل "والر". إذ أننا إلى حد ما نصنع ذواتنا، وغالبــا مــا نصنع اختياراتنا الخاصة، الأمر الذى قد يتطور إلى عادات ويشكل شخصــيتنا الناضجة. فيضرب مثال لــ"روبرت هاريس"، مثلنا جميعا، يقوم باختيارات، كما قام باختيارات كشاب، كانت عناصر مهمة فى تشكيل شخصيته البالغة الوحشية. وبالمثل، فإن "شين" Sean شاب من أسرة محبة وداعمة، يذهب إلى مدرســة ممتازة وعنده جميع جميع الميزات التى تنقص "هاريس" بشكل واضح والذى قام

(1) Bruce waller: "Denying Responsibility without Making Excuses," *American Philosophical Quarterly*, Volume 43 (2006):p 81.

(2) Bruce waller; Restorative Free Will: Back to the Biological Base, Lexington Books,2015,p 5.

أيضا باختيارات كانت مهمة فى تشكيل شخصيته البالغة التالية. ومن الصعب تخيل أن أى أحد ، يمكن أن يفترض أن اختيارات الاثنين يمكن أن تكون أساسا سليما لادعاءات المسئولية الأخلاقية أو إسناداتها[1].

ومن هنا فقد تباينت الآراء حول المسئولية الأخلاقية، فقد أكّد أن نظام المسئولية الأخلاقية يعمل بصورة جيدة فى منع الجريمة وتحسين الشخصية، والبعض الأخر رفض المسئولية الأخلاقية على أساس أنها موجوده إفتراضا ولكن حتى لو أن ممارسة المسئولية الأخلاقية كانت فعّالة فى صنع مجتمعٍ افضل فإن هذه الفعالية لن تُثْبِت أن هذا النظام نظامٌ عادل. النقطة هنا هى فقط أنه (ما لم يكن الشخص نَفْعِيّا) فإن تقرير ما إذا كان نظامٌ ما نظاما كفؤا فهذه مسألة، بينما تقرير ما إذا كان هذا النظام عادلا فمسألةٌ مختلفة تماما.

(1) *Bruce waller: Against Moral Responsibility, p128.*

المبحث الثالث: الإرادة الحرة وعلاقتها بالمسئولية الأخلاقية

يعرف "والر" الإرادة الحرة على أنها القدرة على الاستكشاف الفعّال للسُبُل أو الطرق البديلة، استجابة لمجموعة مؤتلفة من الاحتمالات أو الأحداث الطارئة البيئية والدوافع أو البواعث الداخلية. وتشمل العناصر الأساسية لتلك المقدرة، القدرة على التمييز فيما بين البدائل وتقييمها والقدرة على ضبط مستوى التقلب أو التغير السلوكى للظروف البيئية. إن ذلك وصف عادى صارم للإرادة الحرة التى توجد بين الحيوانات التى تبحث عن طعامها والتى تطوّرت فى عالم متغير. والإرادة الحرة المتطورة الطبيعية لن تلهم لا الشعر ولا الإخلاص الدينى، وهى ليست الصفة التى تجعلنا شبه آلهة، ولا هى الهبة الخاصة من الله لخلقه المفضل والأخير.

والإرادة الحرة ليست فريدة للبشر، فهى طبقا "لكانط" لا تتطلب مستوى عاليا من العقلانية التأملية، وهى لا تساند المسئولية الأخلاقية، ولا تتضمن أى قوى خاصة.

وهنا يطرح والر تساؤل حول هل توجد مسئولية أخلاقية بدون حرية؟

يرى توماس بينك* أنه تؤسس الإختيارية ، فى نهاية الأمر ، ما يشبه إلى حد كبير شكلاً من أشكال التقرير الذاتى ، لا شك في أنه إن كان قرار المرء أو إرادته هو ما يحدد أفعاله ، فإن المرء يكون هو من حدد لنفسه ما يفعل . يمكننا أن نجد احتكاما إلى هذه الفكرة عن التقرير الذاتى بوصفه من باب الاختيارية فى عصر حركة الإصلاح الدينى ، كما إننا قد لا نكون أحرارا في التصرف بشكل مختلف عما نفعل ، ولكن تظل أفعالنا مسئوليتنا ، لاننا من خلالها نقوم بما قررنا أو أردنا نحن أنفسنا أن نقوم به[1].

(1) Bruce waller: *Restorative Free Will: Back to the Biological Base, 2015, Lexington Books, p1.*

يمكن القول مما سبق أن رأى توماس بينك يدعم فكرة أن الإرادة الحرة يتبعها مسئولية ، لأن الإنسان هو الذى يحدد أفعاله ومن ثم يكون مسئولا عن هذا الأختيار الذى جاء بناءا على تفكير حر ، وهذا الرأى لا يدعمه "والر" الذى يرى أن إنفصال المسئولية الأخلاقية عن الإرادة الحرة[١].

على ضوء ذلك يمكن القول على نحو ما يرى "والر" إن هذا ليس وصفا تعديليا للإرادة الحرة، بل بالأحرى، إنه رأى مجدِّد للإرادة الحرة يستعيد تلك الإرادة لكثير من الأجناس التى حُرِمت منها فى ظل أوصافٍ ابتدعها البشر للزعم بحقوقهم الحصرية للإرادة الحرة. إن الإرادة الحرة شائعة بالنسبة لأجناس كثيرة، وتظهر أجناس مختلفة حرية الإرادة بمجموعةٍ متنوعة من الوسائل. ومع ذلك، فإن كل هذه المظاهر تشترك فى سمات شائعة وتخدم وظائف متشابهة. فبالنسبة للرؤية التجديدية، فإن قوى الإرادة الحرة التى تستمتع بها الحيوانات البشرية تتشابه بشكلٍ فهما أفضل عن طريق فحص العناصر المشتركة لها والتى يتشارك فيها أجناس كثيرة، بدلا من التركيز على التحسينات المميزة للإرادة الحرة الفريدة بالنسبة للبشر. إنه من أجل مساندة المسئولية الأخلاقية والإرادة الحرة الفريدة بالنسبة للبشر[٢].

نجد هنا أن "والر" يشبه الإرادة الحرة عند الحيوانات ببعضها ، حيث يرى أن الحيوانات التى ليست فريدة، ولكنها مرتبطة عن قربٍ بأجناس أخرى، حيوانات لها فكر، ولكنه ليس فكرا يجعلها منعزلة بشكل جذرى، حيوانات ليست مسئولة أخلاقيا. وبهذا يرى "والر" أن أوصاف الإرادة الحرة قد إتخذت منعطفا خطأ تجاه التفرد البشرى ، وترفض الباحثة هذا التشبية من قبل "والر" حيث أن

---

[١] توماس بينك: إلإرادة الحره : ترجمة ياسر حسن ، دار هنداوى للطبع والنشر ٢٠١٥، ص٧٥، ٧٦

[2] Bruce waller : *Restorative Free Will, p2.*

الله قد ميز البشر عن سائر الكائنات بنعمة العقل ، وإذا كان الأنسان يدرك أفعاله التى هى نابعة من إرادته الحره، وليست غريزية مثل الحيوانات فسيكون بذلك مسئولا عن هذه الأفعال.

وهنا ينتقد " والر " الأوصاف التعديلية للإرادة الحرة فيقول: (مثل "فارجاس" Vargas* تُصِرُّ بصفة عامة على أن الوصف التعديلى الجديد يحافظ بنجاح على بعض من أشكال المسئولية الأخلاقية (ربما نسخة للمسئولية الأخلاقية مُصابة بفقر الدم بنظرة أمامية أو مبكرة والتى يعنى فيها "تحميل شخصٍ بالمسئولية" مجرد أن العقوبات يُحتمل أن تحسِّن السلوك فى المستقبل). لكن المسئولية الأخلاقية إضافةٌ مشوهة أضيفت متأخرة وليس لها علاقة بالإرادة الحرة. إنها كما لو أننا كنا نخطط لاستعادة أو ترميم معبدٍ يونانى قديم أضيفت إليه كنيسة مسيحية فى قرنٍ تالٍ، وفى قيامنا بالترميم نُصِرُّ على وجوب الحفاظ على الكنيسة. فمثل هذا التنقيح أو المراجعة لن يحقق أبدا الرؤية الواضحة للمعبد الأصلى. إن الوصف التجديدى يستعيد الإرادة الحرة إلى دورها الأكبر فى السلوك الحيوانى، ويستبعد التفرد البشرى وادعاءات المسئولية الأخلاقية التى تُشَوِّه فهمنا للإرادة الحرة الحيوانية(١).

يمكن أن نفهم مما سبق أن فارجاس قد قام بتعديل صورة الإرادة الحرة مع الأحتفاظ بدور المسئولية الأخلاقية ، لكن "والر" يرفض هذا التعديل ، حيث يرى ضرورة فصل المسئولية الأخلاقية عن الإرادة الحرة لفهم الإرادة الحرة عندما لا يعرقلها الإصرار على أنها تساند المسئولية الأخلاقية.، ويعطى تشبية بالمعبد الذى ترمم مع الأحتفاظ بالكنيسة، فهذا لن يبرز شكل المعبد الأصلى القديم، وبهذا يرى "والر" أن وصف فارجاس غير صحيح فى ضرورة التعديل وليس الفصل كما يراه والر.

(1) Ebid, p3.

غير أن أرسطو *، هو أول من بنى نظرية المسئولية الأخلاقية ، حيث يناقش فضائل البشر ورذائلهم ويبحث فى أسسها، فيرى أنه من المناسب أحيانا الرد على فاعل بالثناء أو الملائمة على أساس أفعالهأ و نزعة الخصال الشخصية ، ثم يؤكد أرسطو على وجود نوعا معينا من الفاعل مؤهل ليكون فاعل أخلاقي وبالتالى يصبح عرضة بشكل موائم لتطلعات المسئولية الأخلاقية، ذلك الذى يملك القدرة على القرار، فالقرار بالنسبة لأرسطو هو رغبة معينة نتيجة عن القصد الذى يعبر عن مفهوم الفاعل وهذا الفعل هو إرادى[١].

نجد هنا أن أرسطو يخالف فى تصوره للارادة الحره عن "والر" حيث أن أرسطو يرى ضرورة أن يكون الأنسان مسئولا أخلاقيا لابد من توافر شروط الإرادة الحرة والذى يجب أن يملكة الفاعل، وبدونه تسقط عنه المسئولية.

مما سبق يتبين – فيما يقول "والر" أن نموذج المجدد للإرادة الحرة يبدأ باستعادة الإرادة الحرة إلى مجموعةٍ متنوعة من الأجناس (أو بدقة أكثر الإقرار بوجود إرادة حرة لدى تلك الأجناس)، ثم يفحص الإرادة الحرة الموجودة كثيرا فى السلوك الحيوانى، وهناك من يدّعون الحقوق الحصرية للإرادة الحرة. وكان هذا نتيجة لاتجاهين: أولا، اتباع الطريق الوحيد للفضيلة الفكرية والتى أصَرّت على الخصوصية الرائعة للجنس البشرى، وليس مجرد التفرد البشرى (حيث أن كل جنس متفرد)، ولكن نوع خاص من التفرد يضع البشر فى جانبٍ من مملكة الحيوان وكافة الأجناس الأخرى فى الجانب الآخر، مع هُوةٍ ضخمة بينهما. وثانيا، بعد أن أصبح البشر مقتنعين بشكل كبير بعدالة العالم، احتجنا ، إلى وجود المسئولية الأخلاقية التى هى المدخل. وعندها أصبحنا نعتقد أن البشر فقط يمكن أن يكونوا مسئولين أخلاقيا

---

[١] د/ فاطمة ميشلان: المسئولية الأخلاقية ، موسوعة ستانفورد للفلسفة تاريخ الدخول ٢٠١٩/٩/٢٢

الملخص العربى

يمكن القول فى ضوء أراء والرأن حرية الإرادة إنسانية طبيعية وليست إعجازية، وأحكاما أخلاقية، وعلاقات شخصية دافئة ذات مغزى ومعنى، وقدرات خلّاقة، والفرصة لاتخاذ قراراتنا الخاصة وممارسة السيطرة الفعالة – يمكن أن يعيش وينتعش بدون المسئولية الأخلاقية، وأن ما نفقده – "مجرد استحقاقات" اللوم والعقاب، والجزاء المُبَرِّر أخلاقيا، والمكافأة الخاصة – هو أننا أحسن حالا بدونها. وأخيرا، فهناك مسألة ما إذا كان من الممكن فعليا استبعاد نظام المسئولية الأخلاقية واستبداله بشئ آخر. ومن الواضح أن هذا لن يكون سهلا سواء على المستوى الشخصى أو المجتمعى، أن ذلك ممكن اجتماعيا ونفسيا، وأننا بالفعل نحرز تقدُّما تجاه هذا الهدف. وباختصار فإن الإلغاء الكلى للمسئولية الإخلاقية أمرٌ مرغوب وممكن

Abestract

It can be said in light of Waller's views that freedom of will is a natural human rather than miraculous, moral rulings, meaningful and warm personal relationships, creative capabilities, and the opportunity to make our own decisions and exercise effective control - that he can live and thrive without moral responsibility, and that what we lose - ‘‘merely merits "Blame and punishment, morally justified punishment, and the special reward - is that we are better off without it. Finally, there is the question of whether it is actually possible to exclude the moral responsibility system and replace it with something else. It is clear that this will not be easy, either at the personal or societal level, that this is possible socially and psychologically, and that we are already making progress towards this goal. In short, the total abolition of moral responsibility is desirable and possible